قصة

المارد والأشوريّة

فالح عبد السلام

قلتُ في سري وأنا أحزمُ أوراقي وكتبي وحقائبي الصغيرة: «يا لهُ من فندق قاحل رتيب»!

وما كان حنقي على الفندق إلاّ صرخة في وجه الذكورة التي كانت في كل شيء: رجال في الاستقبال ورجال في الممرات وآخرون في المطعم. وكان هؤلاء الرجال العاملون كثيري الابتسام إلاّ أنَّ ابتساماتهم جميعاً لم يكن بإمكانها أنْ تضيء مساحةَ شمعة صغيرة تستطيع امرأة واحدة أنْ توقدها بابتسامة عابرة.

أنهيتُ كلَ شيء. وكان أصدقائي في الأسفل ينتظرونني عند سيارة كبيرة سترجع بنا إلى الموصل بعد أن انتهى مؤتمر الأدباء ببغداد.

سمعتُ صوت منبه السيارة. وعرفتُ أنهم ينادونني.

تركتُ خلفي غرفةً مضطربةً. واتجهت نحو الباب لأصفقه بقوة حنقي وغضبي السري وأغادر.

ولكني لم أصفقه، وتوقفتُ مكاني، إذْ خفقت في دمي موجات مالبثت أنْ اشتدَّتْ وعَلَتْ وكادتْ تُخرسني أمام امرأة في عينيها حزن غائر مخفيّ، وفي جسدها لهب.

قالت: «أعتذر، لقد تأخَّرت عن تنظيف غرفتك. سأعود بعد دقائق». ونظرتْ إلى الحقائب والكتب في يدي لتضيف: «هل تسافر؟».

قلت: «الآن».

وأعدتُ في رأسي جملتها بلحظة: «هل تسافر؟» كانت جملةً فيها استبطاء حروف تخرج من مسامات أنوثةٍ لن تستطيع أعمالُ التنظيف المضنية أنْ تخفيها. ولم أشأ أنْ أفكر في هذه المرأة إلاّ بوصفها أنوثة مجردة، لأني كنت في حالة ذكورية عمياء.

ضُرب منبه السيارة مرات عدة.

هل أستطيع أنْ أفعل شيئاً في دقائق؟

ماذا يمكنني أنْ أفعل الآن؟

فتحتُ حقيبةً صغيرةً وتشاغلتُ بوضع العطر على ملابسي قبيل المغادرة، وتعمدت تقريب الزجاجة منها وهي تلملم شراشف الغرفة المجاورة، قائلاً بصوت متهدج: «شُمّيه، إنَّه عطر جميل».

كنتُ أريد أنْ أضع يدي حول عنقها المرمري. لكنَّها تملّصت وهي تقول كأنَّها لا تريد إحراجي: «من أين أنتَ»؟

قلت: «الموصل».

قالت: «وأنا أيضاً».

ضحك الحذرُ في وجهها وهي تردف: «كنتُ أسكن في منطقة الباب الجديد».

قلت: «أوه.. إنها قريبة جداً من سكني».

قالت: «وأين تسكن»؟

قلت: «في المجموعة الثقافية».

لم يضحك الحذر في وجهها هذه المرة، بل ضحكتْ هي دون حذرها قائلةً:

«أنتَ بعيد.. بعيد جدّاً».

قلتُ ولَّما يزل الموج يتلاطم على بوابات دمي: «لماذا تُبعدينني عنك؟ تعالي إلى هنا قليلاً». وأشرتُ إلى غرفتي المفتوحة الباب التي شعرتُ أنَّ وردةً برّيّة قد انبجست في صحرائها تلك اللحظة.

سكت وجهها عن ابتسامة ذات معنى وهي ترجع خطوةً إلى الوراء.

قلتُ لها: «أأنت أرمنية»؟

أجابت: «أشوريّة. وأسكن في بغداد منذ سنين».

علا صوتُ منبه السيارة فأحسست أنَّ الدنيا ضيقةٌ جداً.

ماذا يمكن أنْ أفعل الآن؟

قررت أنْ أُخرج وحشَ الأنوثة من أعماقها ولو بعملية قيصرية، فالوقت لم يعد يسمح بأيّ تباطؤ، واندفعت قائلاً:

ـ أنتِ متزوجة، أليسَ كذلك؟

ـ هل تعتقد أنني بلا زواج حتى الآن؟

قدرت أنها في منتصف الثلاثين من عمرها وأنا أقول:

ـ يا لي من أحمق. كيف يمكن أن يصبر الرجال على امرأة مذهلة الجمال مثلك.

ضحكتْ بخفوت: «لا تكن لعوباً وقل لي متى ستخرج كي أدخل لأنظف غرفتك»؟.

ادخلي الآن.

جملة لم أقلها. قالها مارد جبَّارٌ مازال ينتظر عند بوابات دمي المصطخب.

ضحكت المرأة بصوت أعلى: «لن أدخل غرفةً فيها أحد.. هذه هي التعليمات».

دقَّ منبهُ السيارة بعنف.

أردتُ أنْ أقنعَ المارِدَ العظيم بأنَّ الوقت ليس فيه متسع لالتقاط نفسٍ واحد، لكنّه لم يقتنع البتةَ.

كيف لي أنْ أقنعَ مارداً؟

ألقيتُ نظرةً عجلى من نافذة الممر إلى الأسفل. كان أصدقائي ضجرين قرب السيارة وعيونهم نحو الطابق الثالث الذي أسكن فيه. وعدتُ إلى المرأة.

قلتُ: «لقد تأخرتِ حقّاً».

قالت: «حرام.. لم أكن أعرف بوجودكم قبل الآن.. كنت في إجازة، حرام»...

تمنيتُ لو أنَّ المارد لم يسمع كلمة «حرام» لكنّه كان قد سمعها قبلي.

هل يمكنني أنْ أغادر دونَ ذلك المارد الهائج في دمي!

سأحاول.. ربَّما أستطيع.

حملتُ الحقائب الصغيرة والكتب، وخطوت خطوةً عنيفةً في الممر وكنت أنوي أنْ أدوسَ على صدر المارد وأخنقه.

هل أقدر على المارد؟

تكرر صوت منبه السيارة عنيفاً، فعزمت على أمر المغادرة حقّاً. دفعتِ المرأةُ عربتها الصغيرة وتناولت مناشف ناصعةَ البياض وصابوناً، وقالت في لحظة توجهها لتنظيف غرفة جديدة وقد كدت أصل بخطواتي إلى نهاية الممر مغادراً:

ـ أمعلِّم أنت؟

أجبتها وأنا أرى السلالم النازلة أمامي: «لا.. أنا أديب».

قالت بفرح: «الله.. أأنت أديب حقّاً»؟

التفتُ نحوها، فوجدتُ أنَّ ومضةَ الفرح التي قدحتْ مع جملتها ما لبثت أن انطفأت في وجهها حالاً.

لماذا يسكت الفرح الجميل عن البوح فجأةً؟ بهذا حدثتني نفسي القلقة.

قالت: «ليتني مثلك».

قلت: «ليكن.. ماذا يعني ذلك»؟

فتحتْ عينيها قبل فمها: «حتى أكتبَ عن حال أخي المسكين».

ـ أخوك؟

ـ هناك رجال يأتون إلى بيته كل مساء، يدفع بهم صاحبُ البيت، يهددونه ويتوعدونه بالاعتداء على زوجته وبناته.

ـ.....!

ـ هل ترضى الحكومة بذلك؟

ـ لا.. أبداً.

ـ أخي جندي احتياط. ويخاف من هؤلاء الرجال.. هل ترضى الحكومة بذلك؟

ـ لا ترضى مطلقاً.

ـ أرجوك أنْ تكتب عنه في الجريدة. إنك تستطيع ذلك، فأنت أديب. ألستَ أديباً؟

مسحتُ جبيني بباطن يدي وقلت: «ولكن...»

علا صوتها بنبرة شجية: «لِمَ أنت أديب إذن؟ أرجوك. أرجوك!»

ـ.....!

ـ قلتَ لأولئك الرجال: أليس هناك شرطة أو حكومة؟

ـ حسناً.. ماذا قالوا؟

ـ قالوا.. نحن حكومة. هل ترضى الحكومة بما يقولون؟

ـ لن ترضى أبداً.

ـ اكتبْ في الجريدة إذن. هذا اسمي واسم أخي. نحن خائفون. أخي التحق بوحدته البارحة. ولا أعرف كيف ستمر هذه الليلة على زوجته وبناته؟

ـ.....!

ـ اكتب مشكلتي الآن. أرجوك. خذ ورقة من عندي... خذ.

كنتُ وحدي أستمع إليها وهي تلهث بخوفها ورجائها. لم يكن المارد معي تلك اللحظة. كان قد انكسر ظهرهُ وغارَ في مكان مجهول. وبدأ دمي المصطخب يصحو ويتنقى.

وأحسست أنَّ شمساً راحت تشرقُ على ساحلِ دمي، ولكنّها شمسٌ حزينة.

حكَّت دمعةٌ حارةٌ عيني.

وسمعتُ المرأة وأنا أنزل الدرج تقول جملتها الأخيرة التي فتَّقت الدموعَ الحبيسة:

ـ هل ينام بيتُ أخي الليلةَ مطمئناً؟

(١٩٨٩ ـ الموصل)